

الخبيس 2007-12-20

111- نجيب محفوظ: قراءة في أحلام فترة النقااة

والحلم (17)، الحلم (18)

الحلم (17)

تواصلت أحياء الجمالية والعباسية وأنا أسير وكأني أسير في مكان واحد. وخيل إلي أن شخصا يتبعني، فالتفت خلفي ولكن الأمطار هطلت بقوة لم نشهدها منذ سنين ورجعت إلى مسكني مهرولا. وشرعت أخلع ملابسى ولكن شعوراً غريباً اجتاحتني بأن شخصا غريباً محتف في المسكن، واستفزني استهتاره، فصحت به أن يسلم نفسه وفتح باب حجرة الاستقبال، وبرز رجل لم أر مثيلاً في مساحته وقوته وقال بهدوء وسخرية "سلم أنت نفسك".

وملكني إحساس بالعجز والخوف وأيقنت أن ضربة واحدة من يده كفيلة بسحقى تماماً أما هو فأمرنى بتسليمه محفظى ومعطى وكان المعطف يهمنى أكثر ولكنى لم أتردد إلا قليلاً وسلمته المعطف والحفظة.. ودفعنى فألقانى أرضاً. ولما قمت كان قد اختفى وتساءلت هل أنادى وأستغيث

ولكن ما حدث مهين وهجلى وسيجعلنى نادرة ونكته فلم أفعل.

وفكرت في الذهاب إلى القسم ولكن ضابط المباحث كان من أصحابى وستذاع الفضيحة بطريقة أو بأخرى

وقررت الصمت ولكنى لم أسلم من الوسواس.

وخفت أن أقابل اللص في مكان ما وهو يسير هائناً بمعطى، ونقودى.

القراءة:

هل يا ترى الدنيا كانت انقلبت إلى عالم الداخل عند نجيب محفوظ، بعد أن أغلقت نوافذ وبوابات الخارج، إلا من صباح وظلال حبيه ومريديه وهى تعلقو لتخترق ستائر الخواس السميكة؟ هل أصبح بيته هو داخل ذاته، وناسه - مادة إبداعه- هم تشكيلات عالمه الداخلى أساساً؟ هل هذا هو ما يستدرجنى إلى قراءة معظم أحلامه داخل الذات أكثر منها خارجها، فأرى المنزل الرحم، وأرى تعدد الذوات بدلا من واقع الشخص..؟

يتكرر الرجوع إلى "المنزل" حتى الآن بشكل قد يشير إلى اتجاه حركة غالبية في كثير من الأحلام ربما نعود لرصدها حين تكتمل الدراسة .

حتى الآن، وبداية من الحلم الثالث نتابع حركية "الرجوع" "الخمين" باستمرار: في "حلم (3) "رجع الراوى إلى شقته وأخطأ فيها، ثم في "حلم (5) "رجع إلى مسكنه بعد أن ضاق بسبك الخارج وتاقت نفسى للرجوع إلى مسكنى فإذا باللبياتشو يستقبله مقهقهها، وفي "حلم (7) "كانت غايته البادئة "أريد العودة إلى بيتى على الرغم من أنه لا ينتظرني أحد"، وفي "حلم (8) "برغم أنه غادرالشقة هربا من امتلائها دهانا وربكة حتى الشعور بالطرد، راح يقول لنفسه وهو يغادرها، .." وأنا أشعر بأننى لن أرجع إليها مدى عمري"، هذا الشعور نفسه هو حنين إلى البيت وأسف على تركه .

في بداية هذا الحلم الخالى نراه يرجع إلى بيته مهرولا احتماء من أمطار شديدة هطلت على أحياء توصلت حتى تداخل المكان في بعضه البعض. لم يؤمنه أبداً - حتى الآن - هذا الرجوع، أو الرغبة في الرجوع، أو الخسرة على احتمال عدم الرجوع

البيت بلوح ، ينادى باعتباره ملاذا واعداء ،

لكنه في نفس الوقت يتبين أنه: إما خاليا أو غريبا، أو مفقودا، أو مختنقا بالفوضى.

هنا - في هذا الحلم - كان البيت "محتلا": لكن شعورا غريبا اجتاحتني بأن شخصا غريبا مختلف في المسكن.

البيت هنا - كما في كثير من الأحلام وقد أوضحنا ذلك- هو الداخل، أعني النفس من الداخل، أو النوم، أو النزوع للرجوع إلى الرحم - كما ذكرنا- وأى من ذلك إنما يمثل أحد ذراعى "برنامج رحلة الذهاب والعودة"، أحد قواعد حركية النوم، وله تجليات مختلفة أهمها النوم، دعاء النوم في الإسلام يقول بأن النوم "مشروع موت صغير"، وأن الاستيقاظ هو البعث منه، وهو متروك بين يدي الله، هذه الحركية تجعل النوم قبرا مؤقتا، والقبر هو الرحم أيضا .

العودة إلى الداخل (الذات/البيت/الرحم) تتم باعتبارها ملاذنا ومأوانا ومأمنا الذى يمكننا أن نللم فيه أنفسنا ونعيد ترتيب ذواتنا لنقوم من جديد، هذا الداخل الذى نتصوره أنه ينتظرنا فاتحاً ذراعيه ليس خاليا، الحقيقة أننا لسنا إلا واجهة لمن يشغله فعلا دون استئذانتنا

نحن نعرف بعض ساكنيه ولا نعرف أغلبهم ،

الرجل الذى كان يحتل المنزل لم يكن غريبا إلا لأن صاحبنا يكتشفه لأول مرة كما يكتشف أنه الأقوى، وأنه الاصل، وأنه قادر ان يستولى على كل شئ، بل وأن به من الجسارة مايسمح له أن يعلن فضيحة ضعف وخيبة هذا الذى ظن أنه صاحب

البيت، وأنه قادر على طرد من سواه، مع أنه هو في النهاية الضحية التي سُرقت، فالأفضل أن يكتف على الخير، وأن يواصل الحياة بظاهره، لكن حتى ظاهره وهو ما يهمه أكثر (وكان المعطف يهمني أكثر) سُرقت منه .

مع رفع الغطاء عن الداخل تتحول الأحوال: فيسير بين الناس كأنه هو، مع أنه ليس تماما كذلك، ليس كما كان قبل أن يحدث ما حدث.

يبدو أنه حتى الرقيب الذي عليه أن يطبق القانون، (ضابط المباحث) أصبح مصدر تهديد لاحتمال أن يبوح بالسِر، فيعرف الناس أن ذلك "الظاهر" لم يكن إلا معطفا أو قناعا بلا حول ولا قوة

وآه لو اكتشف الناس أن الآخر شبهه تماما، أنه هو، فماذا يتبقى منه، بل آه لو اكتشف هو أنه ليس هو، لو قابل الآخر يسير هانئا بمعطفه ونقوده! وأنه حتى بعد أن انهزم، ليس متفردا حتى بقناعه!! (معطفه) وأنه لا يملك من أمره شيئا (نقوده) .

الخلم (18)

.. وتم جلسنا على الجانبين في القارب البخارى بدا كل واحد وحده لا علاقة له بالآخرين، وجاء الملاح ودار الموتور. الملاح فتاة جميلة. ارتعش لمرأها قلمي. اطلت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب، وركزت عيني رأسي في رأسها النبيل وهي تمرق بنا في النهر، وتتناغم خفقات قلبي مع دفقات النسيم وفكرت أن أسير إليها لأرى كيف يكون استقبالها لي.

لكني وجدت نفسى في شارع شعبي لعله الغورية وهو مكتظ بالخلق في مولد الحسن ولحتها تشق طريقها بصعوبة عند إحدى المنعطفات فصممت على اللحاق بها .

وحيا فريق من المنشدين الحسين الشهيد .

وسرعان ما رجعت الى مجلسي في القارب وكان قد توغل في النهر شوطا طويلا.. ونظرت إلى مكان القيادة فرأيت ملاحا عجوزا متجهم الوجه. ونظرت حولى لأسأل عن الجميلة الغائبة ولكني لم أر إلا مقاعد خالية .

وقمت لاسأل العجوز عن الجميلة الغائبة .

القراءة

كما لاحظنا -حتى الآن - كيف تتكسر الحواجز باستمرار في هذه الأحلام، كسرت حتى الآن حواجز الزمن (الماضى والحاضر) "حلم (2)" كسر الحاجز بين الموت والحياة، "حلم (14)" بين الحاضر والغائب، "حلم (13)" بين الخيال والواقع، "حلم (5)" في هذا الحلم ينكسر الحاجز بين الماء واليابسة، بين النهر والحارة، بين "القارب البخارى تقوده الملاحة الجميلة"، وشارع الغورية

لكن قبل ذلك، قبل أن يجد نفسه في شارع الغورية (غالبا) وهو بعد في القارب كانت الملاحه (في نفس الوقت) تطل عليه من النافذة وهو تحت الشجرة، ثم يمدد أننا في بدايات رحلة الحياة بين الصبا ومطلع الشباب، وليس في بداية النهار أو بداية دخول الليل مثلا، (خل بالك) وهي في نفس الوقت تمرق به في حين أنه يسير إليها، قد يكون سيره في المركب يعنى أنه يعبر على سطحه إلى مركز القيادة حيث الملاحه، أو يكون سيره في الشارع استجابة لنداء طلّتها من النافذة، برغم أنها تمرق بهم النهر في نفس الوقت.

في الشارع الشعبي في الغورية تلوح له الملاحه الجميلة أيضا.

فتاته - حتى الآن - تلوح له فيتبعها حلم (2) تنظر إليه فيلحقها الحلم (7) تختفى منه فيبحث عنها حلم (2)، هنا أيضا: في شارع لعله بالغورية، يلجمها، فيصمم على اللحاق بها.

(تحية الحسين الشهيد ليست بالضرورة إشارة إلى موته عطشا (إليها)، ولكن يمكن أن تكون كذلك).

مع الرجوع إلى إزالة هذه الخواجز نجد الراوى في القارب من جديد، بعد أن ضاعت منه الملاحه الجميلة، وكأنه لم يترك القارب (الرحم أيضا) إلا ليفقدها، حل محلها ملاح عجوز،

هكذا ضاع العمر دون أن يولد بعد،

هو مازال في القارب الذي كان الرحم، وهو هو القبر

كان رحما بعدُ بالولادة حين كانت الأم هي التي تقوده، مع وجود آخرين على الجانبين في المركب، إلا أنهم كانوا كل واحد منغلق على نفسه ولا علاقة له بالآخرين، - الموقف الشيزيدى - (أنظر حلم 16)

ثم نجد المركب في النهاية يقودها عجوز وقد عادت خاوية، وقد أصبحت الرحم القبر،

وكان الراوى فشل في رحلة الحياة حين عجز أن يمارس حركية العلاقة بالآخر، (بالموضوع) على الرغم مما لاح له من وعود.

يظل النداء قائما، والحياة مشروعا، والجميلة واعدة لكنها اختفت لتظل دائما أمنية في الصدر

وقمت لأسأل العجوز عن الجميلة الغائبة.